

حجاجية المثل في القرآن الكريم

الدكتور: إبراهيم ميهوي

كلية الآداب واللغات - جامعة الأغواط - الجزائر

تلخيص

يهدف هذا البحث إلى بيان أهمية المثل في الحجاج ولا سيما المثل القرآني وذلك من خلال ما يفسحه المثل من مجال يتم به إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق إلى حد يرى فيه المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد، وينجم عنه تبكيث الخصم الألد، وقمع سورة الجامح الأبي، من خلال ذلك الانتقال الذي يجسده التمثيل والمشابهة، فإذا مجرد محسوس مجسم مجسد، وإذا الغائب حاضر ماثل في الأذهان. وإذا كان ذلك كذلك في الأمثلة العادية فإنه في المثل القرآني أبهى. وذلك لما تتميز به مواده وأشكاله وما يتخلل ذلك من تطريز يزين ذلك كله ويجعل الحجج أقوى وأوقع في النفوس.

This research aims to explain the importance of the example into the argumentation and specially in the Coran, because it allows showing meanings of meanings to the the point where we can see the imaginary in form of reality and the supposed in form of facts .generally , in one word, it illustrate the abstracts ideas . but, in Coran the examples, has their specificities by their forms and their them . those are the points wich we would clarify in the present research.

ما أكثر ما يلجأ المتكلم إلى الاستعانة بالمثل في كلامه، يزينه به أو يستشهد به، ليحسم جدلاً أو يجمل به مجموعة من الأفكار استعصت على الجمع في ذهنه، وقد يستغنى ببعض أنواعه عن الإطالة في الكلام. والناس لا يناقشون في الغالب هذه الأمثال وإنما يتلقونها بالقبول أحياناً وبالإعجاب في أحيان أخرى. ولا غرابة في ذلك، فالأمثال تشخص المعاني فإذا هي ماثلة، والأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان لأن الذهن يستعين فيها بالحواس بخلاف ما يعقل من المعاني وما يجرد عن الحس.¹ يقول الزمخشري: "ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل شأن ليس بالحنفي في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيث للخصم الألد وقمع لسورة الجامح الأبي".² أما الجرجاني فقد نظر إلى التمثيل من جانبه الفني دون أن يغفل دوره في الإقناع وهو بذلك ينظر إلى الحجاج من جانبه: الإقناع والإمتاع أو العقلي والعاطفي وهو يقول في ذلك "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن

¹ ينظر بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، المكتبة العصرية، بيروت، 1972، ط2، ج1، ص 488

² جار الله الزمخشري، الكشاف، ت: محمد الصادق قمحاوي، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، 1972، ج1، ص 195

صورتها الأصلية إلى صورته كساها أمية، وكسبها منقبة ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستشار لها من أقاصي الأفئدة صباة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا.¹ ولا يفوتنا أن نذكر أن استعمال الأمثال لا يختص به طائفة من الناس دون أخرى أو أمة دون أخرى، إذ يستعملها العامي والعالم والمتخصص وغير المتخصص كما يستعملها العربي والأعجمي، كل بحسب محيطه والإطار الثقافي والاجتماعي الذي يغترف منه، بيد أن المزية تكمن في حسن اختياره ووضعه في الموضع الذي يليق بحيث يكون كالدرة التي تضيء على ما حولها بهاء وهذا الاختيار لا يتعلق فقط بالموضع بل يتعدى ذلك إلى مخاطبين فقد يكون المثل في القمة ولكنك قد تخاطب به من لا يحركه أو لا يستحسنه لكونه بعيدا عما يعايشه أو لا يصل إلى مستواه إذ ينبغي تحديث الناس بما يفهمون.

تعريف المثل لغة

يقول ابن منظور "المِثْلُ : الشَّبه. يقال : مِثْلٌ وَمِثْلٌ وشَبَّهَ وشَبَّهَ بمعنى واحد.² ويقول الزمخشري: مثله به شبهه به. وتمثل به تشبه به. ومثل الشيء بالشيء سوي به وقدر تقديره.³ وفي المعجم الوسيط : مثل الشيء لفلان صورته له بكتابة أو غيرها حتى كأنه ينظر إليه. وتمثل الشيء تصور مثاله.⁴ وقد يكون المثل بمعنى الحال أو الصفة، كما في قوله تعالى: "مثلهم كمثل الذي استوقد نارا" البقرة: 15 أي حالهم⁵. وقوله تعالى "فمثلته كمثل الكلب" الأعراف: 176 أي صفته

و نخلص من هذه التعاريف إلى أن مادة "مثل" تدور حول: الشبه كما هو واضح من تعريف ابن منظور أو التسوية في القدر كما يبدو من كلام الزمخشري وقد يتجاوز ذلك إلى تصوير الشيء كما يفهم مما جاء في المعجم الوسيط وكل ذلك ينسجم مع المعنى الاصطلاحي للمثل كما سيأتي بيانه.

تعريف المثل اصطلاحا

جاء في كتاب ديوان الأدب للفارابي: المثل ما تراضاه الخاصة والعامة في لفظه ومعناه حتى ابتدلوه فيما بينهم، وفاهوا به في السراء والضراء، واستدروا به المتنع من الدر، وتوصلوا به إلى المطالب القصية، وتفرجوا به عن الكرب المكربة⁶ وقريب منه ما جاء عند صاحب الكليات: المثل اسم لنوع من الكلام وهو ما تراضاه الخاصة والعامة لتعريف الشيء بغير ما وضع له من اللفظ⁷

وفي شرح الفصيح "المثل جملة من القول مقتضبة من وُصلها، أو مرسلّة بذاتها تنسم بالقبول أو تشتهر بالتداول، فتنتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده به من غير تغيير يلحقه في لفظها، وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، ولذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها".⁸

¹ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ت: محمد الاسكندراني و م. مسعود، دار الكتاب العربي، 2005، ص 93

² ابن منظور، لسان العرب، ت: عبد الله على الكبير وآخرون، طبعة دار المعارف الجديدة، مادة مثل، ص 4133

³ الزمخشري، الأساس في البلاغة، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج2، ص 193

⁴ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة، مصر، ط4، مادة مثل، ص 853

⁵ أيوب بن موسى الكفوي، الكليات، ت: عدنان درويش، و محمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط1992، 2، ص 852 وقد استعمل بعض المفسرين "

صفته بدل حالهم انظر حاشية الصاوي على تفسير الجالين ج1: ص12

⁶ الفارابي، ديوان الأدب، ت: أحمد مختار عمر، القاهرة، 2003، ج1، ص 74

⁷ الكليات ص 852

⁸ أحمد بن محمد المرزوقي، شرح الفصيح، ت: سليمان بن إبراهيم العابد، ص 297

وهو عند التهانوي القول السائر أي الفاشي الممثل بمضربه ومورده¹. قال الراغب: "والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابة، ليعين أحدهما الآخر ويصوره"² وجاء في المعجم الفلسفي "المثل كلمة جامعة تلخص نظرية أو مجموعة ملاحظات أو تجارب"³ وتلتقي هذه التعاريف مجتمعة في مجموعة من المعاني نوردها فيما يلي:

- المثل كلام متداول فاش بين الناس خاصتهم وعامتهم، وقد عبر عن ذلك الفارابي بقوله: "ما تراضاه الخاصة والعامة في لفظه ومعناه حتى ابتدلوه فيما بينهم" وتبعه في ذلك صاحب الكليات. وعبر عن هذا المعنى المرزوقي بقوله: "جملة... تتسم بالقبول أو تشتهر بالتداول" أما التهانوي فيفهم ذلك من قوله: "هو القول السائر أي الفاشي" - يمكن تطويع المثل واستعماله في ميادين شتى بحسب قصد المتكلم مع اعتبار وجود المشابهة. - يؤتى بالمثل لبيان قول آخر وتوضيحه

- المثل يسمح بالانتقال من شيء إلى شيء أو من حال إلى حال لوجود المشابهة بينهما مما هو مجرد إلى ما هو محسوس مما يساهم في حضور الشيء. وبذلك يتم تجسيم المعاني وتجسيدها بحيث يكون حضورها واضحاً جلياً. والفلسفة المثالية تبرر استخدام التمثيل استخداماً حجاجياً بما يقدمه لنا من تصور للأشياء⁴. أما بيرلمان وتيتكا فقد جعلوا المثل من وسائل الحجاج القائمة على الاتصال المؤسس لبنية الواقع باعتباره أداة برهنة. وتكمن قيمته الحجاجية في اعتبار التماثل القائم بين البنى المراد الجمع بينها، ذلك أن التمثيل جمع بين بنى مختلفة بينها تشابه في العلاقة. هذا وتزداد أهمية التمثيل حينما ينتقل من مجال البرهنة إلى مجال الإبداع الذي يمكن صاحبه من إيجاد نوع من التفاعل بين العلاقات التي يقوم عليها موضوع الكلام وتلك التي تتفتق عن المثل على الرغم من اختلاف ميدان هذا وذاك⁵

حجاجة المثل في القرآن الكريم

نظراً لما يكتسيه ضرب المثل في الكلام جاء التنويه به في القرآن الكريم. قال تعالى: "وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون" الحشر: 21. وقال عز من قائل "ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون" إبراهيم: 25. حتى إن القرآن اشتمل على بضعة وأربعين مثلاً. جاء في الكشف "ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله"⁶، وقد جاء المثل في القرآن بأوجه وصور مختلفة ولا غرابة في ذلك فقد كانت الأمثال من أحد الأسلحة التي واجه بها المشركون الوحي، قال عز من قائل: انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها" الفرقان: 9 وقال تعالى: "ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً وقال تعالى: "وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه" يس: 78 ونحن سنتناول المثل من خلال: مادته والصورة المستعملة فيه والأبعاد الحجاجية التي تنبثق عنها.

أولاً: مادة المثل

تنوعت مادة الأمثال المضروبة في القرآن وشملت ميادين مختلفة مما له علاقة بحياة الإنسان فكان منها طائفة انتزعت من عالم الحيوان وتشكل بعضها من مجال الزراعة والمشاهد الطبيعية، وكان منها أمثال مست جوانب من حياة الإنسان

¹ كشف اصطلاحات الفنون ص 1449

² الحسين بن محمد المعروف بالراغب، المفردات، مكتبة نزار مصطفى الباز، ص 596

³ مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، المطابع الأميرية، القاهرة، 1983، ص 170

⁴ عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، مسكيلياني للنشر، تونس، ط1، 2011

⁵ ينظر عبد الله صولة، الحجاج أطره و منطلقاته، ضمن كتاب "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية" إشراف حمادي صمود ص 338-342

⁶ جار الله الزمخشري، الكشف، ت: محمد الصادق قمحاوي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ج1، ص 195، 1972

الاجتماعية والثقافية وغيرها. ومما يلاحظ أن جزءا كبيرا منها تم فيها التركيز على المحسوس وهو أمر مفهوم باعتبار أن القرآن كتاب موجه لجميع الفئات وليس لفئة خاصة واتخاذ المحسوس منطلقا يشكل مرتكزا هاما أو أساسيا في إستراتيجية الإقناع. يقول ابن عاشور: "إن العرب بتوغل الأمية والجهل فيهم أصبحوا لا تهتدي عقولهم إلا بما يقع تحت الحس، أو ما ينتزع منه" ¹ "وهنا نتساءل إذا كان الأمر كما قال ابن عاشور فما بال الخطاب الموجه إليهم يزخر بالمجازات والاستعارات والأمثال والكنيات، والتعريضات، والتلميحات وغيرها وهو أمر لم يغب عن هذا العلامة الذي يقر بأنهم جبلوا على ذكاء القرائح وفطنة الأفهام" ². وإذا كان ذلك كذلك فلا شك أن انتزاع الصور مما يقع تحت الحس يشخص المعاني، كما سبق أن ذكرنا، ويجعلها أثبت في الأذهان وأوقع في النفس وأقوى في الإقناع، وأقدر على استحضر المراد باستحضار نظيره إذ النفس تأنس بالنظائر والأشباه. وسنحاول فيما يلي تناول بعض الميادين التي أخذت مادة الأمثال منها.

1- عالم الحيوان

أشار القرآن الكريم إلى العديد من الحيوانات في أكثر من مائة وأربعين آية وسميت ست سور منه بأسماء حيوانات : البقرة الأنعام، النحل، النمل، العنكبوت، الفيل. وجاء ذكر الحيوان بصفة عامة تحت مسمى "الدواب" و"دابة" 18 مرة. وجاء ذكر مجموعة من أهم المجموعات الحيوانية بالنسبة للإنسان تحت مسمى الأنعام والنعم 33 مرة كما ذكرت بأعيانها أحيانا كالإبل والبقر والنعاج... الخ في أكثر من عشرين موقعا هذا فضلا عن ذكر الحيوانات المختلفة الأخرى : الحوت الفيل الأسد الذئب الضفادع وبعض أنواع الطير : الغراب، الهدهد ... والحشرات : البعوض الذباب ... الخ ³ وإذا كانت هذه الحيوانات قد ذكرت في مواقع مختلفة لأغراض شتى فإن بعضها قد استعمل في ضرب الأمثال. يقول الجاحظ: "وقد ذكر الله عز وجل في القرآن العنكبوت، والذر والنمل، والكلب والحمار والنحل، والهدهد والغراب والذئب، والفيل والحيل والبغال، والحمير والبقر والبعوض، والمعز والضأن والبقرة، والنعجة والحوت والنون. فذكر منها أجناسا فجعلها مثلا في الذلة والضعف، وفي الوهن وفي البذاء والجهل" ⁴.

قال تعالى: "فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث". وقال عز من قائل: "يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له" وقال تعالى "كمثل العنكبوت اتخذت بيتا" وقال جل شأنه: "كمثل الحمار يحمل أسفارا" وفي هذه الأمثلة كما ترى ذكرت حيوانات معروفة لدى المخاطبين في أحوال معروفة لديهم أيضا. فالكلب معروف في لهثته في كل الأحوال إذ هو طبيعة فيه لا فكاك عنه، فلا ينفع معه تغيير وضعه، والحمار يضرب به المثل في الجهل. والحق أنها لم تذكر للذلة فقط إذ إن بعضها ذكر للتحدي وبيان عظمة الصانع وعجز الإنسان أو عجز الأوثان المعبودة من دون الله. فالذباب معروف بضعفه هذا صحيح ولكنه مع هذا الضعف في الخلق لا يقدر أحد من المخاطبين أن يخلقه ولا أن ينتزع منه ما أخذه قسرا، وفي ذلك دلالة على عجب الصنعة، وهكذا يخاطب الناس بما يفهمون انطلاقا مما هو معروف ومقبول لدى المخاطبين للوصول إلى النتائج الحتمية التي لا يمكن رفضها وذلك من أهم ركائز الحجاج الذي يؤسس على المنطقات بكافة أصنافها : وقائع، وحقائق، وقيم وغيرها، باعتبارها مسلمات لا يسع

¹ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج1، ص 66

² ابن عاشور، ج1، ص 93

³ ينظر زغلول النجار، الحيوان في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2006، ص 36/35

⁴ الجاحظ، الحيوان، ت: عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، ط2، مصر، 1966، ج4، ص 37

المخاطب إلا التسليم بها .

2- ميدان الزراعة :

وما قلناه عن عالم الحيوان نقوله عن الأمثال المأخوذة من ميدان الزراعة والظواهر الطبيعية، ولا يخفى حضور النوع من المشاهد في كل عصر وفي كل بيئة .

قال تعالى عمن ينفق ماله رياء : " فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا" البقرة: 264 وقال تعالى عمن يريدون وجه الله: " مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة وتشبيها من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين" 265 وضرب تعالى مثلا لخصية الأمل في الإففاق الذي يخالطه ما يفسده فقال : " أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون" البقرة: 266 وقال تعالى عن زوال الدنيا : "إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليه أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس". يونس: 24 وقال جل شأنه عن الحق والباطل : "أنزل من السماء ماء فسالأت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا و مما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال " الرعد: 17.

وقال تعالى: اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. الحديد: 20

إن المتأمل في هذه الأمثال يلاحظ أنها مأخوذة مما يتكرر بكثرة في حياة الإنسان نزول المطر، واختلاطه بنبات الأرض، ثم ظهور النبات واخضراره وازهاره إلى أن يصفر ثم يصير حطاما، أو إهلاكه وهو أتم ما يكون إزهارا واخضرارا وكل ذلك مما لا يغيب عن عين الإنسان ما دام حيا، وبذلك فهو أقوى في اتخاذه مستندا ينطلق منه في محاجة من يراد إقامة الحجة عليهم . وقد وقع اختيارنا في التحليل على واحد من هذه النماذج باعتباره مما تكرر في القرآن الكريم.

3- الحياة الاجتماعية

جاءت بعض الأمثال في القرآن الكريم تتناول ومضات من الحياة الاجتماعية المعروفة لدى الناس عامة ولدى المجتمع العربي على وجه الخصوص في عصر التنزيل، زخرت سورة النحل بطائفة منها، منها قوله تعالى: ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستتويون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون. وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم. النحل: 75، 76 . وقوله عز وجل: ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة. النحل: 92 . ومنها قوله تعالى: وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل فكفرت بأنعم الله فأذاقها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. النحل: 112 . وفي سورة الزمر قوله جل شأنه: ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا

سلما لرجل هل يستويان مثلاً. الزمر: 29.

وإذا تأملنا الأمثلة السابقة يتضح له أن المثلين الأول والثاني جيء بهما عقيب زجر المشركين عن أن يشبهوا الله بخلقه أو يشبهوا الخلق بربه وأن فعلهم هذا يشبه حال من مثل السيد المالك الرازق بالعبد العاجز الذي لا يملك ولا يكسب، وكل ذلك مما يعاينونه يومياً من واقعهم فقد كان لهم عبيد مملوكون لا يقدرّون على شيء، عالة على غيرهم وهم لا يسوون بحال بينهم وبين السادة المالكين المتصرفين. فإذا كان هذا لا يقع في عالم المخلوقين وهو مستهجن عندهم فكيف يستسيغونه في حق من يملك هؤلاء السادة وعبيدهم جميعاً ويتصرف فيهم كيفما يشاء، فيذل منهم من يشاء ويعز منهم من يشاء ويحي من يشاء ويميت من يشاء.¹

ومثل ما قيل عن الأمثال السابقة يقال عن المثل الثالث والرابع أما الثالث وهو قوله تعالى: "ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً" فيه نهى عن نقض عهد الله بعد توكيده والتمثل بمن ضرب مثلاً وهو يتضمن نوعاً خاصاً من الحجج يسميه بعض البلاغيين المحدثين حجة التبذير التي تستعمل في حق من يعرض الجهد والوقت والمال للضياع، وهذا النوع ينضوي تحت عنوان الحجج المؤسسة على بنية الواقع عندهم² وهذا المثل معروف مشهور عند العرب بالاستهزاء عن امرأة كانت خرقاء مختلة العقل كانت تغزل هي وجواربها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فتنقض ما غزلته وهكذا تفعل كل يوم³ فيذهب جهدها وجهد جواربها هباءً. وإذا كان المثل معروفاً مشهوراً عند العرب فإن مواده أيضاً معروفة لسائر الناس الغزل وما يتطلبه من تعب ونصب ونقضه الذي لا يكلف جهداً كبيراً في حد ذاته ولكنه يذهب بالجهود الكبيرة المضنية. وهذا الجمع العجيب بين ما يأتي بعد جهد حميد وينقض في لمح البصر يشي بالتحقير والترذيل والتعجيب، وتشويه الأمر في النفوس، وتقبيحه في القلوب ويشي باختلال صاحبه وسفاهته⁴

ثانياً: شكل الصورة في المثل

جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا أن التمثيل هو التصوير والتشبيه، والفرق بينه وبين التشبيه أن كل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً⁵. ويعضد هذا قول الجرجاني: "فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيل"⁶.

والتمثيل كما يعرفه القزويني: ما وجهه وصف منتزع من متعدد أمرين أو أمور⁷. ويقول عنه الجرجاني أنه: "ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين وأكثر"⁸. ويفصل عبد الله صولة ذلك فيقول: إن التمثيل على عكس التشبيه لا يقيم تشابهاً بين عنصرين اثنين بل بين بنيتين اثنتين فليس التمثيل إذن بقائم على علاقة تشابه وإنما هو قائم على تشابه في العلاقة أي أن التشابه فيه بين علاقيتين⁹ العلاقة الأولى تكون بين طرفين (أ، ب)، والعلاقة الثانية

¹ ينظر تفسير التحرير والتنوير، ج 14، ص 223، وينظر سيد قطب تفسير في ظلال القرآن، دار الشروق ط 32، 2003، ج 4، ص 2183

² ينظر عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، كلية الآداب - سمنية تونس، إشراف حمادي صمود، ص 331

³ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 14، ص 264

⁴ ينظر سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص 2191

⁵ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص 341

⁶ الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 78

⁷ الخطيب القزويني، ت: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2002، ص 190

⁸ الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 88

⁹ عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص 549

بين طرفين (ج، د) والتشابه الحاصل يكون بين العلاقة الأولى والعلاقة الثانية.¹ كما في قوله تعالى: مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا" فالصورة فيه منتزعة من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيل ذلك سبيل الشبيئين يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لما في حال الأفراد.² وفي هذا المثل تبدو الصورة على النحو التالي: الطرف الأول: علاقة أهل الكتاب بالتوراة كعلاقة الحمار بالأسفار التي يحملها، فالحمار لا يحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيء فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ويكد جنبه وكذلك شأن اليهود يحملون التوراة ويقترون بذلك الجهل وعدم الانتفاع بها بل إنه ثقل يحملونه ويتحملون مسؤوليته³ وهذا هو الشكل النموذجي لأنه يشتمل على كافة العناصر المكونة للتمثيل ولكن الأمثال في القرآن قد تكون من أكثر من أربعة عناصر وقد تكون أقل غياب عنصر من العنصرين المشبهين⁴ والذي يهمننا هو التركيز على تعدد الأمور التي انتزعت منها الصورة، هذا من جهة ثم إن هذا التصوير يستند إلى ركن ركين من عالم الحس، كما سبق أن ذكرنا، تم جمعه من هنا وهناك وأعيد تشكيله بالطريقة التي تناسب المقاصد، فتنشأ علاقات بين القضايا المتباعدة ويجمع بين العناصر المتضادة في مشهد مركب يجمع بين الإحساسات المتباينة ويمزج بينها حتى تكتمل عناصر الحجة ذلك أن الصورة الفنية عموما وتلك المتعلقة بالتمثيل لا تثير في ذهن المتلقي صورة بصرية فحسب بل تثير صوراً لها صلة بكل الإحساسات الممكنة التي يتشكل منها نسيج الإدراك الإنساني⁵ وهو أمر واضح جلي في الأمثلة السابقة وفي غيرها ثم إن مما يميزها أن مكونات مكونات هذه الصور ليست جامدة وإنما هي صور تدب فيها الحركة والحياة انظر مثلاً إلى قوله تعالى: "أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا" البقرة: 17-20. ما أكثر ما يشبه ذلك بصورة الفنان أو بالنسج أو بالوشى أو غير ذلك ولكن الأمر أبعد من ذلك، تلك صور ميتة جامدة لا حراك فيها، بينما هذه صور حافلة بالحركة، حية، يتبدى لك من خلالها النفس المضطربة التائهة وقد أحاط بها الرعب، واجتمع عليها الفزع والحيرة، الأضواء والأصداء⁶، صورة من لا يعرف ما يفعل، من يجمع أصابعه من شدة الاضطراب والفزع، ليحشو بها أذنيه ولماذا؟ حذر الموت وهل يحذر من الموت بمثل هذا؟ يقول سيد قطب رحمه الله: "إن الحركة التي تغمر المشهد كله: من الصيب الهاطل، إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى الحائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة، التي تقف عندما يخيم الظلام... لترسم عن طريق التأثير الإيحائي حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون... بين ما يطلبونه من هدى ونور وما يفيتون إليه من ضلال وظلام. فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية، ويحسم صورة شعورية⁷ وهذا النوع وإن كان فاشيا في القرآن الكريم يرى بعضهم أنه مما مما يميز الصورة في العصر الحديث. يقول عز الدين إسماعيل مقارنا بين الصورة في الشعر القديم والشعر الحديث:"

¹ ينظر نفسه، ص 549

² الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 82

³ ينظر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 86

⁴ ينظر عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص 551

⁵ ينظر جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 3، 1992، ص

310/309

⁶ ينظر سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط32، 2003، ج1، ص 46

⁷ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج1، ص 46

أما الصورة في الشعر الحديث فلها صفات غير ذلك أو لنقل إن لها فلسفة جمالية مختلفة، فأبرز ما فيها الحيوية، وذلك أنها تتكون تكوناً عضوياً، وليست مجرد حشد مرصوص من العناصر الجامدة... وكما كانت اللفظة أداة تعبيرية فقد أصبحت الصورة ذاتها هي الأداة. وكذلك ارتبطت الصورة بموقف من الحياة¹. أليس هذا ما يبدو تماماً من خلال المثل القرآني السابق؟ ولا عجب في ذلك فالرجل يتكلم عن الصورة في الشعر القديم أما ما أوردناه فهو عن كلام الله القديم الحديث الذي لا يخلق على كثرة الرد والذي يخاطب الناس كافة في كل عصر مستعملاً كل الوسائل التي تصل إلى قلوبهم وعقولهم حتى ولو كان ذلك وسائل فنية. وهذه الطريقة في الحجاج لا يختص بها هذا المثل دون غيره، خذ، مثلاً، قوله تعالى: أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنان تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون. البقرة: 266 وفيه مشهد الجنة بنخيلها وأعنانها وثمارها المختلفة، حركة الكبر وهي تصيب صاحبها، مشهد الذرية الضعفاء ومشهد الإعصار والنار التي تلتهم ما تزين من تلك الجنة بعد جهد وتأتي على الجنة بما فيها فلا تترك للذرية الضعفاء شيئاً لأن والدهم لم يعد قادراً على إعادة الكرة ثانية وليس له غيرها. وهو تمثيل لحال من ينفق في سبيل ثم يتبع ما أنفق منا وأذى يذهب بكل جهده حين يكون أحوج ما يكون إليه.

تحليل نموذج

قال تعالى: "إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لعلهم يتفكرون" يونس: 24 فيما يلي سنحاول تلمس بعض تلك الجوانب في هذا المثل الكريم، نكتفي به لأن الأمثال كثيرة وتناولها بالتحليل لا يكفي فيه هذا البحث المقتضب.

يقول ابن عاشور: "والمثل الحال الماثلة على هيئة خاصة، كان التشبيه هنا تشبيه حالة مركبة بحالة مركبة. عبر عن ذلك بلفظ المثل الذي شاع في التشبيه المركب"². وذلك جلي في هذا المثل الذي ركب من عشر جمل تبدو كأنها جملة واحدة لشدة تداخل بعضها في بعض، فكان ذلك صورة واحدة تمازجت أجزاؤها لتشكل الشبه المقصود، بحيث لو انتزع منها جزء لاختل المغزى من التشبيه.³

والصورة في هذا المثل منتزعة من المجال الزراعي مما يتكرر في حياة الناس على مر الأزمنة مما يقيها ماثلة أمام الأعين، زينة الأرض من جهة والجوائح التي تأتي عليها من جهة أخرى وهي من أشد ما يصيب الإنسان في حياته⁴. ومن بديع ما في في هذا المثل تضمنه لتشبيهات متفرقة من أطوار الحالين المتشابهين بحيث يصلح كل جزء من هذا التشبيه المركب لتشبيه جزء من الحالين المتشابهين. فقوله "كماء أنزلناه من السماء" شبه به ابتداء أطوار الحياة ابتداء من وقت الصبا وما يحذو الإنسان من أمل في نضارة العيش ونعيمه وذلك يشبه حال نزول المطر باعتباره سبباً فيما يؤمل من زخرف الأرض ونضارتها. وقوله "فاختلط به نبات الأرض" شبه به بداية ذلك الزخرف والبهاء والجمال، وعطف بالفاء ليؤذن بسرعة

¹ عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دار الكر العربي، 2004، ص 82

² محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج 11، ص 141

³ ينظر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 88

⁴ ينظر، عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، دار الفارابي، بيروت، ط 1، 2001، ص 503، 504

الماء واتجاهه نحو الاكتمال والاستواء إلى أن تزين الأرض وتأخذ زخرفها " كما هو واضح في قوله عز من قائل " حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت " ¹ إلى أن تأتي الجوائح بالنهاية المفاجئة في وقت يكون فيه أهل الأرض في أوج قدرتهم حتى إنهم ليظنون أنهم قادرون عليها . ولا شك أن هذا المشهد المتكرر في الحياة مشهد الكوارث الطبيعية التي تحصد كل شيء أتت عليه من أعنف المشاهد على نفس الإنسان وأشدّها أثراً ووقعا على النفوس فإذا ما أضيف إلى ذلك مثلها المتكرر في واقع الحياة الذي قد يكون عاما فيطال الجميع كما هو الشأن في البلدان التي تصيبها المجاعات والأزمات بسبب ذلك ، أو خاصا يجعل الناس يتألمون للمصاب ويتخوفون على ما عندهم، كان ذلك أوقع في النفس لتهيباً للنهاية المحتومة التي لا فكاك عنها، نهاية الحياة بعد تزيينها وإعجابها للناظر إلى حد الافتتان بها والاعتثار بها مما يدفعه إلى الظن بأنه مالك لها قادر عليها فإذا هو يسلبها بغتة ويحال بينه وبينها وهو لم يتهيأ لذلك ². قال ابن القيم: "هكذا حال الدنيا والواقع بها سواء. وهذا من أبلغ التشبيه والقياس" ³. فكم من ضال اهتدى بسبب مصيبة أصابت غيره فكان له في ذلك عبرة. ولذلك نجد البلاغيين المحدثين يجعلون الوقائع على رأس المقدمات الحجاجية لأنها تمثل ما هو مشترك بين الناس أو على الأقل بين مجموعة منهم وهي لا تكون عرضة للدحض أو الشك مما يدفع المخاطب إلى التسليم بما يقال له ⁴ ولا شك أن المعول في حجاجية هذا المثل المركب هو على المحل الشاغر فيه والذي ينبغي أن يملأه المتلقي، فإذا ما استعرضنا عناصره تمثل لنا بهذا الشكل:

الطرف الأول مكون من (أ ، ب)-----الطرف الثاني مكون من (ج ، د)

أ (الحياة الدنيا) ، ب (.....المحل الشاغر.....)؟

مثل

ج (الأرض ونباتها)، د (في اخضراره ونضارته الزاهية الزائلة).

فينشأ من ذلك مفهومان: المفهوم الأول وهو المفهوم الناشئ عن العنصر الذي وقع بواسطته التصوير أما المفهوم الثاني فينشأ عنه وينبني عليه إذ المتلقي هو من ينشئه ليملاء به المحل الشاغر حتى يستكمل التمثيل أركانه كون المفهوم الأول هو بمثابة المقتضى للمفهوم الثاني، فإذا كانت الحياة الدنيا شبيهة بالأرض التي ينزل عليها الماء فإذا هي في قمة زخرفها وزينتها فما الذي يقابل المقطع " فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس " الذي يمثل المحل الشاغر في الصورة المركبة الأولى والذي يمكن للمتلقي أن يملأه بالشكل التالي:

أ- (الحياة الدنيا ب- (في زوالها)

تشبه

ج- (الأرض ونباتها) د- (في اخضراره ونضارته التي لا تلبث أن تزول).

هذا ولا يخفى ما للجانب الفني في هذا المثل من قوة تأثيرية تمهد الطريق للإقناع، إذ ما أكثر ما يكون الإقناع بالإمتاع، يقول طه عبد الرحمن " وقد تزوج أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع فتكون إذ ذاك أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب،

¹ ينظر ابن عاشور، تفسير التحرير والتوير، ج11، ص 141، 142

² ينظر ابن القيم، الأمثال في القرآن الكريم، ت: سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة بيروت، 1981، ص 185

³ ، 1 ابن القيم، الأمثال في القرآن الكريم، 185، 186

⁴ عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطقاته، ص 308

وتوجيه سلوكه، لما يهبها هذا الإمتاع من قوة في استحضر الأشياء، ونفوذ في إشهادها للمخاطب، كأنه يراها رأي العين¹. من ذلك ما في هذا المثل من بديع الاستعارة وفصيح الكلام حيث استعمل لفظ الزخرف وهو الذهب، ويطلق على ما يترين به مما فيه ذهب وتلوين من الشيا وبالحلي²، فإذا الأرض في بهجتها كالعروس المتزينة بالحلي وزاهي الألوان وهو من بديع الاستعارة³، و من ذلك التعبير عن المفاجأة التي يطوى فيها الزمان وتطوى فيها الأحداث وتذهب معها المسرات بقوله "أناها أمرنا ليلا أو نهرا" ثم التعبير عن الدمار الذي لا يترك شيئا أقي عليه بقوله " فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس" أرض محصودة قطعت واستؤصل زرعها⁴.

وقد تكرر هذا المعنى بصيغ أخرى، كما في قوله تعالى في سورة الكهف "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا" الكهف:45. و أشار إلى هذا المعنى في سورة الزمر بقوله " ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما" الزمر:21. و قوله تعالى في سورة الحديد: "اعلموا أنما الحياة الدنيا ...إلى قوله "كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما".الحديد: 20 والتكرار كما هو معروف من وسائل الحجاج التي تثبت حضور المقصود إذ إن من خصائص التكرار، إنعاش الذاكرة، وتثبيت حكم ما أو تأكيد معنى.

¹ طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد أصول علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ، 2000، ط2، ص 38

² ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج11، ص 143

³ ينظر محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الحديث، القاهرة، ط 10، ج1، ص 571

⁴ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المعرفة بيروت، ط2، ج11، ص 348